- ٢٥ -

نشأة التفسير وتطوره [١]

جرت سُنَّة الله أن يرسل كل رسول بلسان قومه ، ليتم تخاطبه معهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [٢] وأن يكون الكتاب الذى أنزل عليه بلسانه ولسانهم ، وإذ كان لسان محمد ﷺ عربيًا فإن الكتاب الذى أنزل عليه يكون بلسان عربى ، وبذلك نطق محكم التنزيل : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [٣] ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [٤] .

فألفاظ القرآن عربية ، ووجوه المعانى فى القرآن توافق وجوه المعانى عند العرب ، وإذا كانت هناك ألفاظ قليلة تختلف فيها أنظار العلماء ، أهى من لغات أخرى وعُرِّبت ، أم هى عربية بحتة ولكنها مما تواردت عليها اللُّغات ؟ فإن هذا لا يُخرج القرآن عن أن يكون عربيا .

والذى عليه المحققون أنها كانت اتفقت فيها ألفاظ العرب مع ألفاظ غيرهم من بعض أجناس الأمم ، وهذا هو ما رجَّحه جهبذ المفسرين ابن جرير الطبرى [٥] . فقد أورد ما رُوِىَ فى ذلك كقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ [٦] قيل : الكِفلان : ضعفان من الأجر بلسان الحبشة ، وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ [٧] قيل : بلسان الحبشة إذا قام الرجل من اللَّيل قالوا : نشأ ، وقوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى

---

(١) راجع هذا البحث بالتفصيل فى كتاب « التفسير والمفسرون » للأستاذ محمد حسين الذهبى.

(٢) إبراهيم : ٤ (٣) يوسف : ٢ (٤) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

(٥) « تفسير الطبرى » (١/١٢) (٦) الحديد : ٢٨

(٧) المزمل : ٦

مَعَهُ ﴾ [1] قيل : سبحى بلسان الحبشة . وقوله : ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [2] قيل : الأسد بالحبشية ، وقوله : ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [3] قيل فارسية أعربت - أورد الطبرى ما رُوِىَ فى ذلك ثم بَيَّن أن أحدًا لم يقل إن هذه الأحرف وما أشبهها لم تكن للعرب كلامًا ، وإنما قال بعضهم : حرف كذا بلسان الحبشة معناه كذا ، وحرف كذا بلسان العجم معناه كذا ، وقد ظهر أن بعض الألفاظ اتفقت فيها الألسن المختلفة ، كالدرهم والدينار والدواة والقلم والقرطاس ، فأى مرجح يجعل اللَّفظ من لغة بعينها ثم نقل إلى اللُّغة الأخرى ؟ فليس أحد الجنسين أولى بأن يكون أصل ذلك كان من عنده من الجنس ومدعى ذلك يدعى شيئاً بلا دليل .

* * *

التفسير فى عهد النبى ﷺ وأصحابه

تكفل الله تعالى لرسوله بحفظ القرآن وبيانه : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [4] فكان النبى ﷺ يفهم القرآن جملة وتفصيلاً ، وكان عليه أن يبيِّنه لأصحابه : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [5] .

وكان الصحابة رضى الله عنهم يفهمون القرآن كذلك لأنه نزل بلغتهم ، وإن كانوا لا يفهمون دقائقه ، يقول ابن خلدون فى مقدمته : « إن القرآن نزل بلغة العرب - وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه » ولكنهم مع هذا كانوا يتفاوتون فى الفهم ، فقد يغيب عن واحد منهم ما لا يغيب عن الآخر .

أخرج أبو عبيد فى « الفضائل » عن أنس : أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [6] ، فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأبُّ ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر » [7] .

---

(١) سبأ : ١٠ (٢) المدثر : ٥١ (٣) هود : ٨٢ ، والحجر : ٧٤
(٤) القيامة : ١٧ - ١٩ (٥) النحل : ٤٤ (٦) عبس : ٣١
(٧) « الإتقان » (٢/ ١١٣) .

وأخرجه أبو عبيد من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : كنت لا أدرى ما « فاطر السموات والأرض » حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فى بئر ، فقال : أحدهما : أنا فَطَرتُها ، يقول : أنا ابتدأتها » (١) .

ولذا قال ابن قتيبة : « إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل فى ذلك عن بعض » (٢) .

وكان الصحابة يعتمدون فى تفسيرهم للقرآن بهذا العصر على :

أولاً - القرآن الكريم : فما جاء مُجْمَلاً فى موضع جاء مُبَيِّنًا فى موضع آخر ، تأتى الآية مطلقة أو عامة ، ثم ينزل ما يقيدها أو يخصصها ، وهذا هو الذى يسمى : بتفسير القرآن بالقرآن ولهذا أمثلة كثيرة ، فقصص القرآن جاء موجزًا فى بعض المواضع ومسهبًا فى مواضع أخرى ، وقوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ ﴾ (٣) فسَّره آية : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ (٤) ، وقوله تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ (٥) فسَّره آية : ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (٦) .

ثانيًا - النبى ﷺ : فهو المبيِّن للقرآن ، وكان الصحابة يرجعون إليه إذا أشكل عليهم فهم آية من الآيات ، عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ (٧) شق ذلك على الناس فقالوا : يا رسول الله ، وأينا لا يظلم نفسه ؟ قال : « إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ إنما هو الشرك (٨) .

كما كان الرسول ﷺ يُبَيِّنَ لهم ما يشاء عند الحاجة ، عن عقبة بن عامر قال : « سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ألا وإن القوة الرمى » (٩) .

---

(١) « الإتقان » (٢/١١٣) .
(٢) « التفسير والمفسرون » (١/٣٦) .
(٣) المائدة : ١
(٤) المائدة : ٣
(٥) الأنعام : ١٠٣
(٦) القيامة : ٢٣
(٧) الأنعام : ٨٢
(٨) رواه أحمد والشيخان وغيرهم - (والآية من سورة لقمان : ١٣) .
(٩) أخرجه مسلم وغيره - (والآية من سورة الأنفال : ٦٠) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « الكوثر نهر أعطانيه ربى فى الجنة » (١) .

وقد أفردت كتب السُّنَّة بابًا للتفسير بالمأثور عن رسول الله ﷺ ، وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُواْ فِيهِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٢) .

ومن القرآن ما لا يُعلم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ كتفصيل وجوه أمره ونهيه ، ومقادير ما فرضه الله من أحكام ، وهذا البيان هو المقصود بقوله ﷺ : « ألا وإنى أوتيتُ الكتاب ومثله معه » . .

ثالثاً – الفهم والاجتهاد : فكان الصحابة إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله تعالى ، ولم يجدوا شيئاً فى ذلك عن رسول الله ﷺ ، اجتهدوا فى الفهم ، فإنهم من خُلَّصِ العرب ، يعرفون العربية ، ويُحسنون فهمها ، ويعرفون وجوه البلاغة فيها .

واشتهر بالتفسير من الصحابة جماعة منهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله ابن الزبير ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله ابن عمرو بن العاص ، وعائشة ، على تفاوت فيما بينهم قلة وكثرة ، وهناك روايات منسوبة إلى هؤلاء وغيرهم فى مواضع متعددة من تفسير القرآن بالمأثور تتفاوت درجتها من حيث السند ، صحة وضعفًا .

ولا شك أن التفسير بالمأثور عن الصحابة له قيمته ، وذهب جمهور العلماء إلى أن تفسير الصحابى له حكم المرفوع إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول وكل ما ليس للرأى فيه مجال ، أما ما يكون للرأى فيه مجال فهو موقوف عليه ما دام يُسنده إلى رسول الله ﷺ .

والموقوف على الصحابى من التفسير يوجب بعض العلماء الأخذ به لأنهم أهل اللِّسان ، ولما شاهدوه من القرآن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم .

(٢) النحل : ٦٤

الصحيح ، قال الزركشى فى « البرهان » : « اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد ، والأول : إما أن يرد عن النبى ﷺ ، أو الصحابة ، أو رؤوس التابعين - فالأول يُبحث فيه عن صحة السند ، والثانى يُنظر فى تفسير الصحابى ، فإن فسَّره من حيث اللُّغة فهم أهل اللِّسان ، فلا شك فى اعتماده ، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه » (١) .

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره : « وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السُّنَّة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختُصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح - ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة ، والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم » (٢) .

ولم يدوَّن شىء من التفسير فى هذا العصر ، لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى ، وكان التفسير فرعًا من الحديث ، ولم يتخذ شكلاً منظمًا - بل كانت هذه التفسيرات تُرْوَى منثورة لآيات متفرقة ، من غير ترتيب وتسلسل لآيات القرآن وسوره كما لا تشمل القرآن كله .

* * *

التفسير فى عصر التابعين

كما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير ، اشتهر بعض أعلام التابعين الذين أخذوا عنهم من تلاميذهم بالتفسير كذلك معتمدين فى مصادره على المصادر التى جاءت فى العصر السابق بالإضافة إلى ما كان لهم من اجتهاد ونظر .

قال الأستاذ محمد حسين الذهبى : « وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء فى الكتاب نفسه ، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ ، وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم ، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم ، وعلى ما يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى .

---

(١) « الإتقان » (٢/ ١٨٣) .

(٢) « ابن كثير » (١/ ٣) .

وقد روت لنا كتب التفسير كثيرًا من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير قالوها بطريق الرأى والاجتهاد ، ولم يصل إلى علمهم شىء فيها عن رسول الله ﷺ ، أو عن أحد من الصحابة .

وقد قلنا فيما سبق : إن ما نُقِلَ عن الرسول ﷺ وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن ، وإنما فسَّروا ما غمض فهمه على معاصريهم ، ثم تزايد هذا الغموض - على تدرج - كلما بَعُدَ الناس عن عصر النبى ﷺ والصحابة ، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص ، فزادوا فى التفسير بمقدار ما زاد من غموض ، ثم جاء مَن بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعًا ، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول ، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن ، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث [1] .

لقد اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وانتقل كثير من أعلام الصحابة إلى الأمصار المفتوحة ، ولدى كل واحد منهم علم ، وعلى يد هؤلاء تلقى تلاميذهم من التابعين علمهم ، وأخذوا عنهم ، ونشأت مدارس متعددة .

ففى مكة نشأت مدرسة ابن عباس واشتهر من تلاميذه بمكة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليمانى ، وعطاء بن أبى رباح .

وهؤلاء جميعًا من الموالى ، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قِلَّة وكثرة ، كما اختلف العلماء فى مقدار الثقة بهم والركون إليهم ، والذى ورد فيه شىء ذو بال هو عِكرمة ، فإن العلماء يختلفون فى توثيقه وإن كانوا يشهدون له بالعلم والفضل .

وفى المدينة اشتهر أُبَىّ بن كعب بالتفسير أكثر من غيره ، وكثر ما نُقِلَ عنه فى ذلك ، واشتهر من تلاميذه من التابعين الذين أخذوا عنه مباشرة أو بالواسطة : زيد ابن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظى .

وفى العراق نشأت مدرسة ابن مسعود التى يعتبرها العلماء نواة مدرسة أهل

---

(١) « التفسير والمفسرون » (١/٩٩ - ١٠٠) .

الرأى : وعُرِفَ بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين . اشتهر منهم علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، ومرة الهمذانى ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة بن دعامة السدوسى .

هؤلاء هم مشاهير المفسِّرين من التابعين فى الأمصار الإسلامية الذين أخذ عنهم أتباع التابعين من بعدهم ، وخلَّفوا لنا تراثًا علمياً خالدًا .

واختلف العلماء فيما أثِرَ عن التابعين من تفسير إذا لم يؤثر فى ذلك شىء عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابة ، أيؤخذ بأقوالهم أم لا ؟

فذهب جماعة إلى أنه لا يؤخذ بتفسيرهم لأنهم لم يشاهدوا القرآن والأحوال التى نزل عليها القرآن ، فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد .

وذهب أكثر المفسرين إلى أنه يؤخذ بتفسيرهم ، لأنهم تلقوه غالبًا عن الصحابة .

والذى يترجح أنه إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

قال ابن تيمية : « قال شُعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين ليست حُجة ، فكيف تكون حُجة فى التفسير ؟ يعنى أنها لا تكون حُجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أما إذا أجمعوا على الشىء فلا يُرتاب فى كونه حُجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حُجة على بعض ولا على مَن بعدهم ، ويُرجع فى ذلك إلى لغة القرآن أو السُّنَّة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة فى ذلك » [1] .

وقد ظل التفسير محتفظًا فى هذا العصر بطابع التلقى والرواية ، ولكن التابعين - بعد أن كثر دخول أهل الكتاب فى الإسلام ، نقلوا عنهم فى التفسير كثيرًا من الإسرائيليات ، كالذى يُرْوَى عن عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب ابن منبه ، وعبد الله بن عبد العزيز بن جريج ، كما بدأ الاختلاف فيما يُرْوَى عنهم من تفسير لكثرة أقوالهم ، ومع هذا فإنها أقوال متقاربة أو مترادفة ، فهو من باب اختلاف العبارة لا اختلاف التباين والتضاد .

* * *

(١) « مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير » (ص٢٨ - ٢٩) ، و« الإتقان » (٢/ ١٧٩) .

التفسير فى عصور التدوين

بدأ التدوين فى أواخر عهد بنى أمية ، وأوائل عهد العباسيين ، وحظى الحديث بالنصيب الأول فى ذلك ، وشمل تدوين الحديث أبوابًا متنوعة ، وكان التفسير بابًا من هذه الأبواب ، فلم يُفرد له تأليف خاص يُفسِّر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، من مبدئه إلى منتهاه .

واشتدت عناية جماعة برواية التفسير المنسوب إلى النبى ﷺ ، أو إلى الصحابة ، أو إلى التابعين ، مع عنايتهم بجمع الحديث ، وفى مقدمة هؤلاء : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشُعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ، ووكيع بن الجرح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وروح بن عبادة البصرى المتوفى سنة ٢٠٥ هجرية ، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية ، وآدم بن أبى إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هجرية ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هجرية .

ولم يصل إلينا من تفاسيرهم شىء ، وإنما رُوِىَ ما نقل مسنَدًا إليهم فى كتب التفسير بالمأثور .

جاء بعد هؤلاء مَن أفرد التفسير بالتأليف وجعله علمًا قائمًا بنفسه منفصلاً عن الحديث ، ففسَّر القرآن حسب ترتيب المصحف ، وذلك كابن ماجه المتوفى سنة ٢٧٣ هجرية ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هجرية ، وأبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨ هجرية ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ هجرية ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩ هجرية ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ هجرية ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هجرية .

وتفاسير هؤلاء مروية بالإسناد إلى رسول الله ﷺ ، وإلى الصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين مع الترجيح أحيانًا فيما يُرْوَى من آراء ، واستنباط بعض الأحكام ، والإعراب عند الحاجة ، كما فعل ابن جرير الطبرى .

ثم جاء على أثر هؤلاء جماعة من المفسِّرين لم يتجاوزوا حدود التفسير بالمأثور ،

ولكنهم اختصروا الأسانيد ، وجمعوا شتات الأقوال دون أن ينسبوها إلى قائليها ، وبهذا التبس الأمر ، ولم يتميز الصحيح من السقيم .

اتسعت العلوم ، وتم تدوينها ، وتشعبت فروعها ، وكثر الاختلاف ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبى ، واختلطت علوم الفلسفة العقلية بالعلوم النقلية ، وحرصت الفرق الإسلامية على دعم مذهبها فأصاب التفسير من هذا الجو غباره ، وأصبح المفسِّرون يعتمدون فى تفسيرهم على الفهم الشخصى ، ويتجهون اتجاهات متعددة ، وتحكمت فيهم الاصطلاحات العلمية ، والعقائد المذهبية ، والثقافة الفلسفية ، واهتم كل واحد من المفسِّرين بحشوه بما برز فيه من العلوم الأخرى ، فصاحب العلوم العقلية يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة كفخر الدين الرازى ، وصاحب الفقه يعنى بالفروع الفقهية كالجصاص والقرطبى ، وصاحب التاريخ يعنى بالقصص والأخبار كالثعلبى والخازن ، وصاحب البدعة يُؤوِّل كلام الله على مذهبه الفاسد ، كالرمانى والجبائى ، والقاضى عبد الجبار والزمخشرى من المعتزلة وملا محسن الكاشى من الإمامية الاثنى عشرية ، وصاحب التصوف يستخرج المعانى الإشارية كابن عربى .

هذا مع علوم النحو والصرف والبلاغة ، وهكذا أصبحت كتب التفسير تحمل فى طيَّاتها الغث والثمين ، والنافع والضار ، والصالح والفاسد ، وحمَّل كل مفسر آيات القرآن ما لا تتحمله ، انتصارًا لمذهبه ، وردًا على خصومه ، وفقد التفسير وظيفته الأساسية فى الهداية والإرشاد ومعرفة أحكام الدين .

وبذلك طغى التفسير بالرأى على التفسير بالأثر ، وتدرج التفسير فى العصور المتتابعة على هذا النمط ، بنقل المتأخر عن المتقدم ، مع الاختصار تارة ، والتعليق أخرى ، حتى ظهرت أنماط جديدة فى التفسير المعاصر ، حيث عَنِىَ بعض المفسرين بحاجات العصر ، وتناولوا فى تفسيرهم الكشف عما تضمنه القرآن الكريم من أسس الحياة الاجتماعية ، ومبادى التشريع ، ونظريات العلوم ، كتفسير الجواهر ، وتفسير المنار ، والظلال .

* * *

التفسير الموضوعى

وبإزاء التفسير العام فى عصور التدوين كان التفسير الموضوعى للمباحث الخاصة يسير معه جنبًا لجنب ، فألَّف ابن القيم كتابه : التبيان فى أقسام القرآن ، وألَّف أبو عبيدة كتابًا عن مجاز القرآن ، وألَّف الراغب الأصفهانى فى مفردات القرآن ، وألَّف أبو جعفر النحاس فى الناسخ والمنسوخ ، وألَّف أبو الحسن الواحدى فى أسباب النزول ، وألَّف الجصَّاص فى أحكام القرآن ، وتتابعت الأبحاث القرآنية فى العصر الحديث ولا يخلو واحد منها من تفسير لبعض آيات القرآن لجانب من الجوانب .

* * *

طبقات المفسرين

وعلى ضوء ما سبق نستطيع أن نُقسِّم طبقات المفسرين على النحو التالى :

١ - **المفسرون من الصحابة** : واشتهر منهم الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبَىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله ابن الزبير ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وجابر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وأكثر من رُوِىَ عنه من الخلفاء الأربعة علىّ بن أبى طالب ، والرواية عن الثلاثة نزرة جدًا ، وكان السبب فى ذلك تقدم وفاتهم ، كما أن ذلك هو السبب فى قلة رواية أبى بكر رضى الله عنه ، فقد روى معمر عن وهب بن عبد الله ، عن أبى الطفيل قال : « شهدت عليا يخطب وهو يقول : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل » .

وأما ابن مسعود فرُوِى عنه أكثر ما رُوِىَ عن علىّ ، وقد أخرج ابن جرير وغيره عنه أنه قال : « والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت ، وأين نزلت ، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته » وأما ابن عباس فسنترجم له بعد إن شاء الله .

٢ - **المفسرون من التابعين** : قال ابن تيمية : « أعلم الناس بالتفسير أهل مكة

لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعِكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وطاوس وغيرهم - وفى الكوفة أصحاب ابن مسعود - وفى المدينة زيد بن أسلم الذى أخذ عنه ابنه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك ابن أنس » ومن أصحاب ابن مسعود علقمة ، والأسود بن يزيد ، وإبراهيم النخعى ، والشعبى ، ومن هذه الطبقة : الحسن البصرى ، وعطاء بن أبى مسلم الخراسانى ، ومحمد بن كعب القرظى ، وأبو العالية رفيع بن مهران الرباحى، والضحَّاك بن مزاحم ، وعطية بن سعيد العوفى ، وقتادة بن دعامة السدوسى ، والربيع بن أنس ، والسدى - فهؤلاء قدماء المفسرين من التابعين ، وغالب أقوالهم تلقوها عن الصحابة .

٣ - ثم بعد هذه الطبقة : **طبقة الذين صنَّف كثير منهم كتب التفاسير التى تجمع أقوال الصحابة والتابعين** ، كسفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجرَّاح ، وشُعبة بن الحجاج ، ويزيد بن هارون ، وعبد الرزاق ، وآدم بن أبى إياس ، وإسحاق بن راهويه ، وعبد بن حميد ، وروح بن عبادة ، وأبى بكر بن أبى شيبة ، وآخرين .

٤ - ثم بعد هؤلاء **طبقات أخرى** : منها علىّ بن أبى طلحة ، وابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه ، وأبو الشيخ بن حبان ، وابن المنذر فى آخرين ، وكلها مسندة إلى الصحابة والتابعين وأتباعهم ، وليس فيها غير ذلك إلا ابن جرير فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط ، فهو يفوقها بذلك .

٥ - ثم انتصبت **طبقة بعدهم** : صنَّفت تفاسير مشحونة بالفوائد اللُّغوية ، ووجوه الإعراب ، وما أثِرَ فى القراءات بروايات محذوفة الأسانيد ، وقد يضيف بعضهم شيئاً من رأيه ، مثل أبى إسحاق الزجَّاج ، وأبى على الفارسى ، وأبى بكر النقاش، وأبى جعفر النحاس .

٦ - **ثم ألَّف فى التفسير طائفة من المتأخرين** : فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال بتراء ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل .

٧ - **ثم صار كل مَن سنح له قول يورده** : ومَن خطر بباله شىء يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه مَن يجىء بعده ظانًا أن له أصلاً ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السَلَف

الصالح ، ومَن هم القدوة فى هذا الباب - قال السيوطى : رأيتُ فى تفسير قوله تعالى : ﴿ غَيرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِينَ ﴾ (١) نحو عشرة أقوال ، مع أن الوارد عن النبى ﷺ وجميع الصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى ، حتى قال ابن أبى حاتم : لا أعلم فى ذلك اختلافًا من المفسِّرين .

٨ - صنَّف بعد ذلك **قوم برعوا فى شىء من العلوم** : منهم من ملأ كتابه بما غلب على طبعه من الفن ، واقتصر فيه على ما تمهَّر هو فيه ، كأن القرآن أنزل لأجل هذا العلم لا غير ، مع أن فيه تبيان كل شىء .

فالنحو نراه ليس له هم إلا الإعراب وتكثير أوجهه المحتمَلة فيه ، وإن كانت بعيدة وينقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كأبى حيان فى البحر والنهر .

والإخبارى همه القصص واستيفاؤه ، والإخبار عمن سَلَف سواء أكانت صحيحة أو باطلة ، ومنهم الثعالبى .

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه جميعًا ، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التى لا تعلق لها بالآية أصلاً والجواب على أدلة المخالفين ، كالقرطبى .

وصاحب العلوم العقلية ، خصوصًا الإمام فخر الدين الرازى ، قد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وخرج من شىء إلى شىء ، حتى يقضى الناظر العجب من عدم مطابقة المورد للآية ، قال أبو حيان فى البحر : جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شىء إلا التفسير .

والمبتدع ليس له قصد ولا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث أنه لو لاح شاردة من بعيد اقتنصها ، أو وجد موضعًا له فيه أدنى مجال سارع إليه ، كما نُقِلَ عن البلقينى أنه قال : استخرجتُ من الكشاف اعتزالا بالمناقيش ، منها أنه قال فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (٢) ، أى فوز أعظم من دخول الجنة ؟ أشار به إلى عدم الرؤية .

وهكذا الشأن بالنسبة إلى الملحدين وغيرهم .

---

(١) الفاتحة : ٧ (٢) آل عمران : ١٨٥

٩ - ثم جاء عصر النهضة الحديثة :

فانتحى كثير من المفسِّرين منحى جديدًا ، فى العناية بطلاوة الأسلوب ، وحسن العبارة ، والاهتمام بالنواحى الاجتماعية ، والأفكار المعاصرة ، والمذاهب الحديثة ، فكان التفسير الأدبى الاجتماعى ، ومن هؤلاء : محمد عبده ، والسيد محمد رشيد رضا ، ومحمد مصطفى المراغى ، وسيد قطب ، ومحمد عزة دروزة .

وللحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هجرية كتاب « طبقات المفسِّرين » ذكر فى مقدمته أنه سيتناول المفسِّرين من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، والمفسِّرين من المحدِّثين ، وأهل السُّنَّة ، والمفسِّرين من أهل الفِرق كالمعتزلة والشيعة ونحوهم ، ولكنه لم يتم ، وبلغ عدد التراجم فيه ١٣٦ ترجمة وهو مرتب على الحروف الهجائية » (١) .

وصنَّف فى طبقات المفسرين أيضاً الشيخ أبو سعيد صنع الله الكوزه كنانى المتوفى سنة ٩٨٠ هجرية .

كما صنَّف فيها أحمد بن محمد الأدنهوى من علماء القرن الحادى عشر .

وللحافظ شمس الدين محمد بن علىّ بن أحمد الداودى المصرى المتوفى سنة ٩٤٥ هجرية كتابه المشهور « طبقات المفسِّرين » وهو أوفى كتاب فى موضعه بالمكتبة الإسلامية ، استقصى فيه الداودى تراجم أعلام المفسِّرين حتى أوائل القرن العاشر للهجرة ، قال فيه حاجى خليفة فى كشف الظنون : « وهو أحسن ما صُنِّفَ فيه » (٢) .

* * *

التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى

التفسير بالمأثور : هو الذى يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب التى ذُكِرَت سابقًا فى شروط المفسر ، من تفسير القرآن بالقرآن ، أو بالسُّنَّة لأنها جاءت مبيِّنة لكتاب الله ، أو بما رُوِىَ عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله ، أو بما قاله كبار التابعين لأنهم تلقوا ذلك غالبًا عن الصحابة .

---

(١) نشرته أخيرًا مكتبة وهبة بالقاهرة ، بتحقيق على محمد عمر .

(٢) قامت مكتبة وهبة بنشره فى جزئين ، بتحقيق على محمد عمر .

وهذا المسلك يتوخى الآثار الواردة فى معنى الآية فيذكرها ، ولا يجتهد فى بيان معنى من غير أصل ، ويتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة فى معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح .

قال ابن تيمية : يجب أن يُعلم أن النبى ﷺ بيَّن لأصحابه معانى القرآن ، كما بيَّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (١) يتناول هذا وهذا ، وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى (٢) : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا ، ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ، قال أنس : « كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا » (رواه أحمد فى مسنده) ، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة ثمانى سنين ، أخرجه مالك فى «الموطأ » ، وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ (٤) وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم » (٥) .

ومن التابعين مَن أخذ التفسير كله عن الصحابة ، عن مجاهد قال : « عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أستوقفه عند كل آية وأسأله عنها » .

* * *

---

(١) النحل : ٤٤

(٢) هو عبد الله بن حبيب التابعى المقرئ ، المتوفى سنة ٧٢ هجرية ، وهو غير أبى عبد الرحمن السلمى الصوفى المتوفى سنة ٤١٢ هجرية .

(٣) سورة ص : ٢٩ (٤) النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤

(٥) « الإتقان » (٢/ ١٧٦) .

الاختلاف فيه

والتفسير بالمأثور يدور على رواية ما نُقِلَ عن صدر هذه الأمة ، وكان الاختلاف بينهم قليلاً جداً بالنسبة إلى مَن بعدهم ، وأكثره لا يعدو أن يكون خلافًا فى التعبير مع اتحاد المعنى ، أو يكون من تفسير العام ببعض أفراده على طريق التمثيل ، قال ابن تيمية : « والخلاف بين السَلَف فى التفسير قليل ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد ، وذلك نوعان :

أحدهما : أن يُعَبِّر واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، كتفسيرهم : ﴿ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ قال بعضهم : القرآن أى اتباعه ، وقال بعضهم : الإسلام ، فالقولان متفقان لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، ولكن كل منهما نبَّه على وصف غير الوصف الآخر .

الثانى : أن يذكر كل منهما من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، ومثاله : ما نُقِلَ فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِه ، وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ ﴾ [1] قيل : **السابق** : الذى يصلى فى أول الوقت ، **والمقتصد** : الذى يُصَلِّى فى أثنائه ، **والظالم لنفسه** : الذى يؤخر العصر إلى الأصفرار - وقيل : السابق : المحسن بالصدقة مع الزكاة ، والمقتصد : الذى يؤدى الزكاة المفروضة فقط ، والظالم : مانع الزكاة » [2] .

وقد يكون الاختلاف لاحتمال اللَّفظ الأمرين ، كلفظ « عسعس » الذى يُراد به إقبال اللَّيل وإدباره ، أو لأن الألفاظ التى عبر بها عن المعانى متقاربة ، كما إذا فسر بعضهم « تبسل » بتحبس ، وبعضهم بترهن ، لأن كلا منهما قريب من الآخر .

* * *

---

(١) فاطر : ٣٢ (٢) « الإتقان » (٢/ ١٧٧)

تجنب الإسرائيليات

وربما كان الاختلاف فيما لا فائدة فيه ولا حاجة بنا إلى معرفته مما وقع فيه بعض المفسِّرين فى نقل إسرائيليات عن أهل الكتاب ، كاختلافهم فى أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعددهم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ، مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ (١) ، واختلافهم فى قدر سفينة نوح وخشبها ، وفى اسم الغلام الذى قتله الخضر ، وفى أسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وفى نوع شجرة عصا موسى ، ونحو ذلك ، فهذه الأمور طريق العلم بها النقل ، فما كان منه منقولاً نقلاً صحيحًا عن النبى ﷺ قُبِل ، وإلا توقفنا عنه ، وإن كانت النفس تسكن إلى ما نُقِلَ عن الصحابة ، لأن نقلهم عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين (٢) .

* * *

حكم التفسير بالمأثور

التفسير بالمأثور هو الذى يجب اتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة ، وهو آمن سبيل للحفظ من الزلل والزيغ فى كتاب الله ، وقد رُوِىَ عن ابن عباس أنه قال : « التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته ، وتفسير يعلمه العلماء ، وتفسير لا يعلمه أحد إلا الله » .

فالذى تعرفه العرب هو الذى يُرجع فيه إلى لسانهم ببيان اللُّغة .

والذى لا يُعذر أحد بجهله : هو ما يتبادر فهم معناه إلى الأذهان من النصوص المتضمنة شرائع الأحكام ودلائل التوحيد ولا لبس فيها ، فكل امرئ يدرك معنى التوحيد من قوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴾ (٣) وإن لم يعلم أن هذه العبارة وردت بطريق النفى والاستثناء فهى دالة على الحصر .

---

(١) الكهف : ٢٢

(٢) فى الحديث : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذِّبوهم » .

(٣) محمد : ١٩

وأما ما لا يعلمه إلا الله : فهو المغيِّبات ، كحقيقة قيام الساعة ، وحقيقة الروح .

وأما ما يعلمه العلماء : فهو الذى يرجع إلى اجتهادهم المعتمد على الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى ، من بيان مُجْمَل ، أو تخصيص عام ، أو نحو ذلك .

وقد ذكر ابن جرير الطبرى نحو هذا ، فقال : « فقد تبيَّن ببيان الله جل ذكره : أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ ، وذلك تأويل جميع ما فيه : من وجوه أمره - واجبه وندبه وإرشاده - وصنوف نهيه ، ووظائف حقوقه وحدوده ، ومبالغ فرائضه ، ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض ، وما أشبه ذلك من إحكام آيه التى لم يُدْرَك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمته ، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له تأويله بنص منه عليه ، أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله .

وإن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار ، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة ، وأوقات آتية ، كوقت قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، ونزول عيسى ابن مريم ، وما أشبه ذلك : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وإن منه ما يعلم تأويله كل ذى علم باللِّسان الذى نزل به القرآن ، وذلك إقامة إعرابه ، ومعرفة المسميات بأسمائها اللازمة غير المشترك فيها ، والموضوعات بصفاتها الخاصة دون ما سواها ، فإن ذلك لا يجهله أحد منهم ، وذلك كسامع منهم لو سمع تاليًا يتلو : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (٢) لم يجهل أن معنى الإفساد هو ما ينبغى تركه مما هو مضرة ، وأن الإصلاح هو ما ينبغى فعله مما

---

(١) الأعراف : ١٨٧ (٢) البقرة : ١١ - ١٢

فعله منفعة ، وإن جهل المعانى التى جعلها الله إفسادًا ، والمعانى التى جعلها الله إصلاحًا » [1] .

* * *

التفسير بالرأى

التفسير بالرأى : هو ما يعتمد فيه المفسِّر فى بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأى المجرد - وليس منه الفهم الذى يتفق مع روح الشريعة ، ويستند إلى نصوصها - فالرأى المجرد الذى لا شاهد له مدعاة للشطط فى كتاب الله ، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأوَّلوه على رأيهم وليس لهم سَلَف من الصحابة والتابعين لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وقد صنَّفوا تفاسير على أصول مذهبهم ، كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم ، والجبائى ، وعبد الجبار ، والرمانى ، والزمخشرى وأمثالهم .

ومن هؤلاء مَن يكون حسن العبارة يدس مذهبه فى كلام يروج على كثير من الناس كما صنع صاحب الكشاف فى اعتزالياته وإن كان بعضهم أخف من بعض ، فمنهم طوائف من أهل الكلام أوَّلت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبها ، وهؤلاء أقرب إلى أهل السُّنَّة من المعتزلة ، إلا أنهم حين جاءوا بما يخالف مذهب الصحابة والتابعين فقد شاركوا المعتزلة وغيرهم من أهل البدع .

* * *

حكم التفسير بالرأى

وتفسير القرآن بمجرد الرأى والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [2] ، وقال ﷺ : « مَن قال فى القرآن برأيه - أو بما لا يعلم - فليتبوأ مقعده من النار » [3] ، وفى لفظ : « مَن قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » .

---

(١) « تفسير الطبرى » (١/ ٧٤ - ٧٥) . .

(٢) الإسراء : ٣٦

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى وأبو داود ، وقال الترمذى : هذا حسن .

ولهذا تحرج السَلَف عن تفسير ما لا علم لهم به ، فقد رُوِىَ عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سُئِلَ عن تفسير آية من القرآن قال : « إنَّا لا نقول فى القرآن شيئًا » (١) .

وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام : « أن أبا بكر الصدِّيق رضى الله عنه سُئِلَ عن الأبّ فى قوله تعالى : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (٢) فقال : « أى سماء تظلنى ؟ وأى أرض تقلنى ؟ إذا قلت فى كلام الله ما لا أعلم » (٣) .

قال الطبرى : « وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا : من أن ما كان من تأويل آى القرآن الذى لا يُدْرَك علمه إلا بنص بيان رسول الله ﷺ ، أو بنصبه الدلالة عليه ، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه ، بل القائل فى ذلك برأيه - وإن أصاب الحق فيه - فمخطئ فيما كان من فعله ، بقيله فيه برأيه ، لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق ، وإنما هى إصابة خارص وظان ، والقائل فى دين الله بالظن ، قائل على الله ما لا يعلم ، وقد حَرَّم الله جل ثناؤه ذلك فى كتابه على عباده ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فهذه الآثار وما شاكلها عن أئمة السَلَف محمولة على تحرجهم من الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به ، أما مَن تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه ولهذا رُوِىَ عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير - ولا منافاة - لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوا ، وهذا هو الواجب على كل إنسان ، ويكون الأمر أشد نكيرًا لو ترك التفسير بالمأثور الصحيح وعدل عنه إلى القول برأيه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وفى الجملة مَن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا ، بل مبتدعًا ، لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه ، كما أنهم أعلم بالحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ » .

---

(١) رواه مالك فى « الموطأ » (٢) عبس : ٣١

(٣) رواه ابن أبى شيبة والطبرى .

(٤) تفسير الطبرى (١/ ٧٨ ، ٧٩) - (والآية من سورة الأعراف : ٣٣) .

وقال الطبرى : « فأحق المفسرين بإصابة الحق فى تأويل القرآن - الذى إلى علم تأويله للعباد سبيل - أوضحهم حجة فيما تأوَّل وفسَّر ، مما كان تأويله إلى رسول الله ﷺ دون سائر أمته ، من أخبار رسول الله ﷺ الثابتة عنه ، إما من جهة النقل المستفيض فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض ، وإما من جهلة نقل العدول الأثبات ، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض ، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته ، وأصحهم برهانًا - فيما ترجم وبيَّن من ذلك - مما كان مدركًا علمه من جهة اللِّسان ، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة ، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة ، كائنًا مَن كان ذلك المتأوِّل والمفسِّر ، بعد أن لا يكون خارجًا تأويله وتفسيره ما تأولَ وفسَّر من ذلك ، عن أقوال السَلَف من الصحابة والأئمة ، والخَلَف من التابعين وعلماء الأمة » (١) .

* * *

الإسرائيليات

لليهودية ثقافتها الدينية التى تُسْتَمد من التوراة ، وللنصرانية ثقافتها الدينية التى تُسْتَمد من الإنجيل ، وقد انضوى تحت لواء الإسلام منذ ظهوره كثير من اليهود والنصارى ، ولهؤلاء وأولئك ثقافتهم الدينية .

وقد اشتمل القرآن على كثير مما جاء فى التوراة والإنجيل ولا سيما ما يتعلق بقصص الأنبياء وأخبار الأمم ، ولكن القصص القرآنى يجمل القول مستهدفًا مواطن العبرة والعظة دون ذكر للتفاصيل الجزئية كتاريخ الوقائع ، وأسماء البلدان والأشخاص ، أما التوراة فإنها تتعرض مع شروحها للتفاصيل والجزئيات ، وكذلك الإنجيل .

وحيث دخل أهل الكتاب فى الإسلام فقد حملوا معهم ثقافتهم الدينية من الأخبار والقصص الدينى ، وهؤلاء حين يقرأون قصص القرآن قد يتعرضون لذكر التفصيلات الواردة فى كتبهم ، وكان الصحابة يتوقفون إزاء ما يسمعون من ذلك ، امتثالاً لقول رسول الله ﷺ : « لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبُوهم ، وقولوا آمنا

---

(١) « تفسير الطبرى » (١/٩٣) .

بالله وما أُنْزِلَ إلينا » [1] ، وقد يدور حوار بينهم وبين أهل الكتاب فى شىء من تلك الجزئيات ، ويقبل الصحابة بعض ذلك ما دام لا يتعلق بالعقيدة ولا يتصل بالأحكام ، ثم يتحدثون به ، لما فهموه من الإباحة فى قوله ﷺ : « بلِّغوا عنى ولو آية ، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حَرَج ، ومَن كذب علىّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » [2] ، أى حدِّثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، أما ما جاء فى الحديث الأول : « لا تُصَدِّقُوا أهل الكتاب ولا تُكَذِّبوهم » فهو محمول على ما إذا كان ما يخبرون به محتملاً لأن يكون صدقًا ، ولأن يكون كذبًا ، فلا تعارض بين الحديثين .

تلك الأخبار التى تحدَّث بها أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام هى التى يُطلق عليها الإسرائيليات من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى ، حيث كان النقل عن اليهود أكثر لشدة اختلاطهم بالمسلمين منذ بدأ ظهور الإسلام ، وكانت الهجرة إلى المدينة .

ولم يأخذ الصحابة عن أهل الكتاب شيئاً فى تفسير القرآن من الأخبار الجزئية سوى القليل النادر ، فلما جاء عهد التابعين ، وكثر الذين دخلوا فى الإسلام من أهل الكتاب كثر أخذ التابعين عنهم ، ثم عظم شغف مَن جاء بعدهم من المفسرين بالإسرائيليات ، قال ابن خلدون : « وإذا تشوَّقوا إلى معرفة شىء مما تتشوَّق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومَن تبع دينهم من النصارى . . فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم » [3] .

ولم يكن المفسِّرون يتحرون صحة النقل فيما يأخذونه من هذه الإسرائيليات ، ومنها ما هو فاسد باطل ، لذا كان على مَن يقرأ فى كتبهم أن يتجاوز عما لا طائل تحته ، وألا ينقل منها إلا ما تدعو إليه الضرورة وتتبين صحة نقله ، ويظهر صدق خبره .

---

(١) أخرجه البخارى . (٢) أخرجه البخارى .

(٣) انظر : « التفسير والمفسرون » (١/ ١٧٧) .

وأكثر ما يُرْوَى من هذه الإسرائيليات إنما يُرْوَى عن أربعة أشخاص ، هم : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج ، وقد اختلفت أنظار العلماء فى الحكم عليهم والثقة بهم ، ما بين مجرِّح وموثِّق ، وأكثر الخلاف يدور حول كعب الأحبار ، وكان عبد الله بن سلام أكثرهم علمًا ، وأعلاهم قدرًا ، واعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث ، ولم يُنسب إليه من التهم ما نُسِبَ إلى كعب الأحبار ووهب بن منبه .

* * *

تفسير الصوفية

إذا أريد بالتصوف السلوك التعبدى المشروع الذى تصفو به النفس ، وترغب عن زينة الدنيا بالزهد والتقشف ، والعبادة . . فذلك أمر لا غبار عليه إن لم يكن مرغوبًا فيه ، ولكن التصوف أصبح فلسفة نظرية خاصة لا صلة لها بالورع والتقوى والتقشف ، واشتملت فلسفته على أفكار تتنافى مع الإسلام وعقيدته ، وهذا هو الذى نعنيه هنا ، وهو الذى كان له أثره فى تفسير القرآن .

ويعتبر ابن عربى زعيم التصوف الفلسفى النظرى وهو يُفسِّر الآيات القرآنية تفسيرًا يتفق مع نظرياته الصوفية سواء أكان ذلك فى التفسير المشهور باسمه ، أو فى الكتب التى تُنسب إليه كالفصوص ، وهو من أصحاب نظرية وحدة الوجود .

فهو يفسِّر مثلاً قوله تعالى فى شأن إدريس عليه السلام : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًا ﴾ (٢) بقوله : « وأعلى الأمكنة المكان الذى يدور عليه رحى عالَم الأفلاك ، وهو فَلَك الشمس ، وفيه مقام روحانية إدريس . . ثم يقول : وأما علو المكانة فهو لنا أعنى المحمديين ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ ﴾ (٣) فى هذا العلو وهو يتعالى عن المكان لا عن المكانة » .

ويقول فى تفسير قوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا

---

(١) انظر : « التفسير والمفسرون » (١/ ١٧٧) .
(٢) مريم : ٥٧
(٣) محمد : ٣٥

رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [1] : « اتقوا ربكم : اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم ، واجعلوا ما بطن منكم - وهو ربكم - وقاية لكم ، فإن الأمر ذم وحمد ، فكونوا وقاية فى الذم ، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين » [2] .

فهذا التفسير ونظائره يحمل النصوص على غير ظاهرها ، ويغرق فى التأويلات الباطنية البعيدة ، ويجر إلى متاهات من الإلحاد والزيغ .

* * *

التفسير الإشارى

ومن هؤلاء المتصوفة مَن يدَّعى أن الرياضة الروحية التى يأخذ بها الصوفى نفسه تصل إلى درجة ينكشف له فيها ما وراء العبارات القرآنية من إشارات قدسية ، وتنهل على قلبه من سُحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية ، ويسمى هذا بالتفسير الإشارى ، فللآية ظاهر وباطن ، **والظاهر** : هو الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره ، **والباطن** هو : ما وراء ذلك من إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ، وهذا التفسير الإشارى كذلك إذا أوغل فى الإشارات الخفية صار ضربًا من التجهيل ، ولكنه إذا كان استنباطًا حسنًا يوافق مقتضى ظاهر العربية وكان له شاهد يشهد لصحته من غير معارض ، فإنه يكون مقبولاً .

ومن ذلك ما رُوِىَ عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر : فكأن بعضهم وَجَدَ فى نفسه فقال : لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه مَن حيث علمتم ، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رئيتُ أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم ، قال : ما تقولون فى قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ ﴾ [3] ؟ فقال بعضهم : أُمِرْنَا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً ، فقال لى : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه له ، قال :

---

(١) النساء : ١

(٢) انظر : « التفسير والمفسرون » (٢/ ٧ - ٨) .

(٣) النصر : ١

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ ﴾ ، وذلك علامة أجلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (١) فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول » (٢) .

قال ابن القيم : « وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول : تفسير على اللَّفظ ، وهو الذى ينحو إليه المتأخرون ، وتفسير على المعنى : وهو الذى يذكره السَلَف ، وتفسير على الإشارة : وهو الذى ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم ، وهذا لا بأس به بأربعة شروط :

١ - ألا يناقض معنى الآية .

٢ - وأن يكون معنى صحيحًا فى نفسه .

٣ - وأن يكون فى اللَّفظ إشعار به .

٤ - وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطًا حسنًا » (٣) .

* * *

غرائب التفسير

من الناس مَن له شغف بالإغراب فى القول وإن حاد عن الجادة وركب مسلكًا وعرًا ، فكلَّفوا أنفسهم من الأمر ما لا يطيقون ، وأعملوا فكرهم فيما لا يُعلم إلا بالتوقيف ، فخرجوا وليس فى يدهم سوى ما تُسفهه عقولهم من الرعونة والغى ، ولهذا عجائب فى معانى آيات من القرآن نذكر من غرائبها :

١ - قول مَن قال فى ﴿ الم ﴾ : معنى ألف : ألف الله محمدًا فبعثه نبيا -

---

(١) النصر : ٣ (٢) أخرجه البخارى .

(٣) من أهم كتب التفسير الإشارى « تفسير القرآن العظيم » للتسترى - مطبوع ، و« حقائق التفسير » لأبى عبد الرحمن السلمى الصوفى - مخطوط ، و« عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد الشيرازى - مطبوع ، و« التأويلات النجمية » لنجم الدين داية وعلاء الدين السمنانى - مخطوط ، و« التفسير المنسوب إلى ابن عربى » - مطبوع .

ومعنى لام : لامه الجاحدون وأنكروه - ومعنى ميم : ميم الجاحدون المنكرون ، ومن الموم بالضم وهو البرسام ، علة بهذى المعلوم فيها .

٢ - قول مَن قال فى ﴿ حمَ * عَسَقَ ﴾ (١) : إن الحاء : حرب علىّ ومعاوية- والميم : المروانية (نسبة إلى مروان من بنى أمية) - والعين : ولاية العباسية- والسين : ولاية السفيانية - والقاف : قدوة مهدى .

٣ - ما ذكره ابن فورك فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ (٢) أن إبراهيم كان له صديق وصفه بأنه قلبه ، أى ليسكن هذا الصديق إلى هذه المشاهدة إذا رآها عيانًا .

٤ - قول أبى معاذ النحوى فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا ﴾ (٣) يعنى من إبراهيم نارًا ، أى نورًا ، هو محمد ﷺ ، ﴿ فَإِذَا أَنتُمْ مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ تقتبسون الدين .

* * *

التعريف بأشهر كتب التفسير

تزخر المكتبة الإسلامية بكتب التفسير بالمأثور ، وكتب التفسير بالرأى ، وكتب التفسير المعاصر ، وبعض هذه الكتب أشهر من بعض فى التداول بين أيدى القراء .

أشهر الكتب المؤلَّفة فى التفسير بالمأثور

١ - التفسير المنسوب إلى ابن عباس .

٢ - تفسير ابن عيينة .

٣ - تفسير ابن أبى حاتم .

٤ - تفسير أبى الشيخ ابن حبان .

٥ - تفسير ابن عطية .

٦ - تفسير أبى اللَّيث السمرقندى « بحر العلوم » .

---

(١) الشورى : ١ - ٢ (٢) البقرة : ٢٦٠ (٣) يس : ٨٠

٧ - تفسير أبى إسحاق « الكشف والبيان عن تفسير القرآن » .

٨ - تفسير ابن جرير الطبرى « جامع البيان فى تفسير القرآن » .

٩ - تفسير ابن أبى شيبه .

١٠ - تفسير البغوى « معالم التنزيل » .

١١ - تفسير أبى الفداء الحافظ ابن كثير « تفسير القرآن العظيم » .

١٢ - تفسير الثعالبى « الجواهر الحِسان فى تفسير القرآن » .

١٣ - تفسير جلال الدين السيوطى « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » .

١٤ - تفسير الشوكانى « فتح القدير » .

وسنعرِّف ببعض منها :

١ - تفسير ابن عباس

يُنسب إلى ابن عباس رضى الله عنه جزء كبير فى التفسير ، طُبِعَ فى مصر مرارًا باسم « تنوير المقياس من تفسير ابن عباس » جمعه « أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشافعى » . صاحب « القاموس المحيط » .

وابن عباس ، كان بحق « ترجمان القرآن » وكان عمر بن الخطاب يثق بتفسيره ويجله ، وقد أخذ فى بعض المواضع عن أهل الكتاب فيما اتفق القرآن فيه مع التوراة والإنجيل ، وذلك فى دائرة محدودة .

وقد اتهمه الأستاذ جولدزيهر فى كتاب « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن » بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب ، ونسج على منواله الأستاذ أحمد أمين فى «فجر الإسلام » وتولى الرد عليهما الأستاذ محمد حسين الذهبى فى كتابه « التفسير والمفسِّرون » [١] فابن عباس كغيره من الصحابة ما كان يسأل علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام عن شىء يمس العقيدة ، أو يتصل بأصول الدين أو فروعه ، إنما كان يقبل الصواب الذى لا يتطرق إليه الشك فى بعض القصص والأخبار الماضية .

---

(١) انظر (١/ ٧٢ - ٧٣) .

ويمتاز ابن عباس برجوعه فى فهم معانى ألفاظ القرآن إلى الشِعر العربى ، لمعرفته بلغة العرب وإلمامه بديوانها .

وتتعدد الروايات عن ابن عباس ، وتتفاوت صحة وضعفًا ، وقد تتبّع العلماء هذه الروايات وكشفوا عن مبلغها من الصحة ، فمن أشهر طرق هذه الروايات :

١ - طريق معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس - وهذه هى أجود الطرق عنه ، وفيها قال الإمام أحمد : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها علىّ بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدًا ما كان كثيرًا » (١) ، وقال الحافظ ابن حجر : « وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب اللَّيث - رواها عن معاوية بن صالح - عن علىّ بن أبى طلحة - عن ابن عباس ، وهى عند البخارى عن أبى صالح ، وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس » .

٢ - طريق قيس بن مسلم الكوفى عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين .

٣ - طريق ابن إسحاق صاحب السير ، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ابن ثابت ، عن عِكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس - وهى طريق جيدة ، وإسنادها حسن .

٤ - طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ، تارة عن أبى مالك ، وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس ، وإسماعيل السدى مُختَلف فيه ، وهو تابعى شيعى ، وقال السيوطى : « روى عن السدى الأئمة مثل الثورى وشُعبة ، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر ، وأسباط لم يتفقوا عليه ، غير أن أمثل التفاسير « تفسير السدى » (٢) .

٥ - طريق عبد الملك بن جريج عن ابن عباس - وهذه الطريق تحتاج إلى دقة فى البحث ، فإن ابن جريج روى ما ذُكِرَ فى كل آية من الصحيح والسقيم .

٦ - طريق الضحَّاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس - وهى طريق غير

---

(١) « الإتقان » (٢/١٨٨)

(٢) انظر : « الإتقان » (٢/١٨٨) .

مقبولة ، لأن الضحَّاك مُخْتَلف فى توثيقه ، وطريقه إلى ابن عباس منقطعة ، لأنه لم يلقه ، فإن انضم إلى ذلك رواية بِشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحَّاك ، فضعيفة ، لضعف بِشر .

٧ - طريق عطية العوفى ، عن ابن عباس ، وهى غير مقبولة ، لأن عطية ضعيف وربما حسَّن له الترمذى .

٨ - طريق مقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى - ومقاتل ضعف ، يروى عن مجاهد وعن الضحَّاك ولم يسمع منهما ، وقد كذَّبه غير واحد ، ولم يُوثِّقه أحد ، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه ، وقال أحمد بن حنبل : لا يعجبنى أن أروى عن مقاتل بن سليمان شيئاً » .

٩ - طريق محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس - وهذه أوهى الطرق ، والكلبى مشهور بالتفسير ، وقد قيل فيه : أجمعوا على ترك حديثه ، وليس بثقة ، ولا يُكتب حديثه ، واتهمه جماعة بالوضع ، ولذا قال السيوطى فى الإتقان : « فإن انضم إلى ذلك - أى إلى طريق الكلبى - رواية محمد بن مروان السدى الصغير عنه فهى سلسلة الكذب » .

ويتضح من التفسير المنسوب إلى ابن عباس أن معظم ما رُوِىَ عن ابن عباس فى هذا الكتاب - إن لم يكن جميعه - يدور على محمد بن مروان السدى الصغير ، عن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وقد عرفنا مبلغ رواية السدى الصغير عن الكلبى فيما تقدَّم [١] .

* * *

٢ - جامع البيان فى تفسير القرآن - للطبرى

يعتبر ابن جرير الطبرى من الأئمة الأعلام الذين برعوا فى علوم كثيرة ، وتركوا تراثًا إسلاميا ضخمًا تناقلته العصور والأجيال ، وقد أحرز شهرة واسعة بكتابيه : فى التاريخ : تاريخ الأمم والملوك ، والتفسير : جامع البيان فى تفسير القرآن ، وهما

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٨٩) .

من أهم المراجع العلمية ، بل إن كتابه فى التفسير هو المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير بالمأثور .

ويقع تفسير ابن جرير فى ثلاثين جزءًا من الحجم الكبير ، وقد كان مفقودًا إلى عهد قريب ، ثم قدَّر الله له الظهور حين وُجِدَت نسخة مخطوطة فى حيازة « أمير حائل » الأمير حمود بن الرشيد من أمراء نجد ، طُبِعَ عليها الكتاب منذ زمن قريب ، فأصبحت فى يدنا معارف غنية فى التفسير بالمأثور .

وهو تفسير عظيم القيمة ، لا غنَى لطالب التفسير عنه ، قال السيوطى : « وكتابه - يعنى تفسير محمد بن جرير - أَجَلَّ التفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، والإعراب ، والاستنباط فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين » وقال النووى : « أجمعت الأمة على أنه لم يُصَنَّف مثل تفسير الطبرى » (١) .

وتفسير الطبرى أقدم كتاب وصل إلينا كاملاً فى التفسير ، فإن المحاولات التفسيرية قبله لم يصل إلينا شىء منها ، اللَّهُمَّ إلا ما وصل إلينا منها فى ثنايا ذلك الكتاب .

وطريقة ابن جرير فى تفسيره أنه إذا أراد أن يُفَسِّر الآية من القرآن يقول : « القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ثم يُفَسِّر الآية مستشهدًا بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير بالمأثور عنهم ، ويعرض لكل ما رُوِىَ فى الآية ، ولا يقتصر على مجرد الرواية ، بل يوجه الأقوال ويرجح بعضها على بعض ، كما يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك ، ويستنبط بعض الأحكام .

وقد يقف من السند موقف الناقد البصير أحيانًا ، فيعدِّل من رجال الإسناد ، ويجرِّح مَن يجرِّح منهم ، ويرد الرواية التى لا يثق بصحتها .

ويعتنى ابن جرير بذكر القراءات وتوجيهها ، ويقال : إنه ألَّف فيها مؤلَّفًا خاصًا .

ومع روايته الأخبار المأخوذة من القصص الإسرائيلى فإنه كثيرًا ما يتعقبها بالبحث.

ويعتمد ابن جرير على الاستعمالات اللُّغوية بجانب الروايات المنقولة ، ويستشهد

---

(١) انظر : « الإتقان » (٢/ ١٩٠) .

بالشعر القديم ، ويهتم بالمذاهب النحوية ، ويحتكم إلى المعروف من لغة العرب ، ويعالج الأحكام الفقهية مجتهدًا ، فيذكر أقوال العلماء ومذاهبهم ، ويخلص من ذلك برأى يختاره لنفسه ويرجحه .

ويناقش مسائل العقيدة مناقشة فاحصة ، يرد فيها على الفِرَق ومذاهب أهل الكلام ، وينتصر لأهل السُّنَّة والجماعة .

وقد طبعت دار المعارف بمصر كتابه ، فى إخراج حسن ، وخرَّج أحاديثه الأستاذ أحمد محمد شاكر ، ولكن هذه الطبعة لم تتم ، مع عظيم نفعها ، والعناية بتحقيقها .

* * *

٣ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز - لابن عطية

ابن عطية من قضاة الأندلس المشهورين ، نشأ فى بيت علم وفضل ، وكان فقيهًا جليلاً ، عارفًا بعلوم الحديث والتفسير واللُّغة والأدب ، ذكى الفؤاد ، حسن الفهم ، من أعيان مذهب المالكية ، وكتابه فى التفسير يسمى « المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز » .

وقد لخص فيه ابن عطية ما رُوِىَ من التفسير بالمنقول ، وأضفى عليه من روحه العلمية الفيَّاضة ما أكسبه دقة ورواجًا ، والكتاب يقع فى عشر مجلدات كبار وكان مخطوطًا إلى عهد قريب ثم طُبِعَ فى المغرب سنة ١٩٧٥ بتحقيق « المجلس العلمى بفاس - مديرية الشؤون الإسلامية - المملكة المغربية » ، والكتاب له شهرته ، وينقل عنه كثير من المفسرين ، وهو كثير الاهتمام بالشواهد الأدبية ، والصناعة النحوية ، ويقارن أبو حيان فى مقدمة تفسيره بينه وبين تفسير الزمخشرى فيقول : « وكتاب ابن عطية أنقل ، وأجمع ، وأخلص ، وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص » .

ويعقد ابن تيمية مقارنة بين الكتابين كذلك فيقول : « وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى ، وأصح نقلاً وبحثًا ، وأبعد عن البدع ، وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير » .

ويقول ابن تيمية كذلك : « وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسُّنَّة والجماعة ،

وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى ، ولو ذكر كلام السَّلَف الموجود فى التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ، فإنه كثيرًا ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبرى - وهو من أجَلِّ التفاسير وأعظمها قدرًا - ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السَّلَف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كان أقرب إلى السُّنَّة من المعتزلة » (١) .

* * *

٤ - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير

كان عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير إمامًا جليلاً حافظًا ، أخذ عن ابن تيمية ، وأتبعه فى كثير من آرائه ، وشهد له العلماء بغزارة علمه فى التفسير والحديث والتاريخ ، وكتابه فى التاريخ « البداية والنهاية » مرجع أصيل للتاريخ الإسلامى ، وكتابه فى التفسير « تفسير القرآن العظيم » من أشهر ما دُوِّنَ فى التفسير بالمأثور ، ويأتى فى المرتبة الثانية بعد كتاب ابن جرير ، فهو يُفَسِّر كلام الله بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها ، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحًا وتعديلاً ، وترجيح بعض الأقوال على بعض ، وتضعيف بعض الروايات وتصحيح بعضها الآخر .

ويمتاز ابن كثير بأنه يُنبِّه فى كثير من الأحيان إلى ما فى التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات ، كما يذكر أقوال العلماء فى الأحكام الفقهية ، ويناقش مذاهبهم وأدلتهم أحيانًا .

وتفسير ابن كثير طُبِعَ مع « معالم التنزيل » للبغوى ، وطُبِعَ مستقلاً فى أربعة أجزاء كبار ، وقام الشيخ أحمد محمد شاكر بطبعه قبيل وفاته بعد أن جرَّده من الأسانيد .

* * *

---

(١) « مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير » (ص٢٣) .